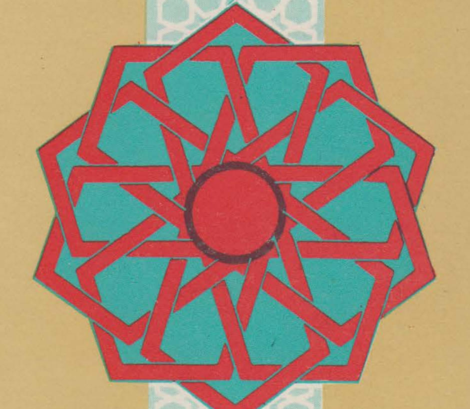
لقاء مع الأبرار

«٩»



الطوسي

شيخ الطائفة

تأليف علي رضا شهروي

ترجمة كمال السيّد

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

لقاء مع الأبرار

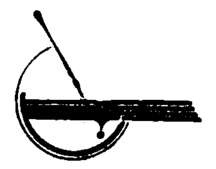
«٩»

الطوسي

شيخ الطائفة

تأليف علي رضا شهروي

ترجمة كمال السيّد



ايران ـ قم ـ شارع الشهداء
مؤسسة أنصاريان للطباعة والنشر
ص . ب ١٨٧ ـ هاتف ٧٤١٧٤٤

اسم الكتاب :	الطوسي شيخ الطائفة
المؤلف :	علي رضا شهروي
المترجم :	كمال السيّد
صفّ واخراج :	محمّد افتخاري ـ تلفون ٦١٩٤٠٣
المطبعة :	صدر
الطبعة الاولى :	١٤١٦ هـ ١٩٩٥ م
الناشر :	مؤسسة أنصاريان
عدد المطبوع :	٣٠٠٠

المحتويات

الفصل الأوّل (لؤلؤة في الضوء)

الفصل الثاني (التراث)

كلمة الناشر

عديدة هى الطلبات التي تلقّتها مؤسسة أنـصاريان سـواء عـبر الهاتف أم خلال رسائل القرّاء الكرام، وكلّها كانت تدور حول كتب تتحدث عن حياة العلماء من الذين كان لهم دور مشرق في عالم الفكر و دنيا العلوم، وقد عكفت المؤسسة علىٰ دراسـة المـوضوع بـاهتمام، استجابةً للرغبات المخلصة المتعطشة للثقافة الإسلامية ورموزها.

واذ تقدم «أنصاريان» سلسلة (لقاء مع الأبرار) فـإنّها تـتمنىٰ أن تلقىٰ الرضا والقبول من لدن جميع القرّاء الكرام، والله الموفّق.

مؤسسة أنصاريان

تمهيد

يقوم الهجوم الثقافي على دعامتين؛ الأولى: تحقير الثقافة الأصلية، والثانية: التهويل للثقافة البديلة والغريبة في نفس الوقت. ومن خلال هذا الاستلاب الثقافي واحتقار الثقافة العريقة يشعر الشعب بحالة من الصغار تجاه الآخرين، غافلا عن ثقافته وما تحويه من الكنوز الثرّة، مستجدياً الغرباء، عارضاً حضارته وتمدّنه بثمن بخس.

ولقد عمل النظام البهلوي البائد على تكريس هذه السياسة في التعامل مع الغرب كإله للحضارة والمدنية والفن بل وحتى الأخلاق والدين، وطرح الشرق باعتباره مثالاً للوحشية، والتخلف، وفي أحسن الأحوال: العالم الثالث عالم الدول النامية؛ ولقد نجحت تلك السياسات الشيطانية إلى حدّما وأصبح الغرب فى نظر الكثيرين ـ خاصة الشباب ـ يمثّل العالم الحرّ المنافح عن حقوق الإنسان والمدافع عن الديمقراطية والحرّية.

ولكن وكما يقال فإنّ الشمس لا تبقى خلف الغيوم إلى الأبد،

وبدت الحقائق واضحة وبدأ عهد الصحوة الإسلامية.. العهد الذي يتّسم بعودة الجيل الحاضر إلىٰ فطرته وقرآنه وعقيدته ورموزه.

وبالرغم من هذه الاشراقة التي تبشر بالخير الوفير فإنّ حالة الاستلاب الفكري وفي كثير من المجالات الحساسة ماتزال تعاني ذيول التأثيرات الغربية.

فما تزال شهادات الغرب تخطف أبصارنا، ومايزال الدواء الذي لا يحمل اسماً غربياً طناناً، عديم التأثير والفائدة، ومايزال الكثير من مظاهر الثقافة الغربية متغلغلاً بل ومتجذّراً في تربتنا، ومايزال الغرب يختار لنا الزي الذى نلبسه، ويعيّن نوع المداليات التي تمنح كجوائز للفائزين، وننتظر منه حتىٰ الجوائز الأدبية التي يسيل لها لعاب الكثيرين. ولكن هل من الصحيح أن نعدّ الغرب مثالاً؟ الغرب الذي ظهر علىٰ حقيقته بشعاراته الجوفاء.. وبدعاواه الفارغة في الدفاع عن الديمقراطية وحقوق الإنسان.

لماذا هذاالشعور بالنقص تجاه جلاّديالقرن الخامسعشر الهجري؟!

فالغرب الذي يمنح جوائزه «الأدبية» إلىٰ عديمي «الأدب» من أمثال سلمان رشدي، في الوقت الذي يصدّر أو امره بحرمان الطلبة المسلمين من الإشتراك فى أولمبياد الفيزياء، مازلنا ننظر إليه كمثال، بالرغم من تمييزه العنصري المقرف.

إنّ علىٰ العالم الاسلامي أن يسعىٰ بجدّ إلىٰ تشكيل «نظام دولي إسلامي» وأن يقطع كل آماله من شعارات الغرب في الديمقراطية

والحرّية والدفاع عن حقوق الإنسان.

وهل هناك أمل ونحن نشهد ماجرىٰ ويجري في الأرض الإسلامية في «البوسنة والهرسك» و «الجزائر» و «فلسطين»؟ وليعلم كل من يهمه أمر المسلمين أنه لا ملجأ إلاّ في العودة إلىٰ أحضان القرآن وظلاله الوارفة.

و «لقاء مع الأبرار» خطوة في الطريق ـ طريق العودة الىٰ الذات من خلال الإشارة إلىٰ نجوم الفكر الإسلامي.. اولئك العمالقة الكبار الذين تضيع فى عوالمهم وآفاقهم الرحبة زعماء العقائد الأخرىٰ ومفكّروها.

ان أشدّ مايرهب الغرب ويرعبه، هو عودة الأمّة الىٰ هوّيتها.. إلىٰ رموزها.. إلى اولئك الذين مهّدوا من خلال جهودهم المتظافرة طريق الإسلام اللاحب.

ولقد أخذت «لقاء مع الأبرار» عهداً علىٰ استكشاف معالم سبعين كوكباً مضيئاً في سماء الفكر الإسلامي، وتقديمهم معالم منيرة في طريق البناء.. بناء الحضارة الإسلامية من جديد.

قم ـ مؤسسة باقر العلوم للبحوث

مقدمة المترجم

عاش الطوسي في زمنٍ عاصفٍ سياسيّاً وخانق اجتماعياً، وكانت الصراعات العرقية ـ التي تتخذ في بعض الاحيان الطائفية ذريعة ـ في أعنف مراحلها، فقد شهد الطوسي بأمّ عينيه حوادث تدمير ضريح الإمام الرضاعليه السلام في مسقط رأسه إثر غارات وحشيّة.

وفي بغداد فجّر «السلاجقة» فتنة طائفية مريرة، بإغرائهم أهل السنّة ضد إخوانهم من الطائفة الشيعية، حيث شهدتْ محلّة الكرخ من بغداد واحدة من أكثر الحوادث عنفاً، عندما دمّرت مؤسسات شيعيّة بالكامل، واشتعلت النار في أضخم مكتبات بغداد، واقتُحم منزل الزعيم الشيعي الكبير، وصودرت ممتلكاته ـ بما في ذلك آثاره العلمية ـ مما اضطر الىٰ الهجرة الىٰ مدينة أخرىٰ.. والبدء بحركة علمية جديدة.

ومن يتأمّل في تراث الطوسي الضخم وما خلّفه من آثار كبيرة في المدرسة الإمامية ـ وبخاصّة في تحطيم حالة الجمود التي سادت الحركة العلمية، يتصوّر أنّ ذلك العبقري كان يعيش في بحبوحة من العيش.. منصرفاً الىٰ تأملاّته وأفكاره. وهنا ينحني المرء بإجلال

أمام ذلك الرجل الذي تزعّم الطائفة الشيعية في واحدة من أدقّ مراحل التاريخ وأكثرها حساسيّة.

وإذا كان «شيخ الطائفة» قد نجح نجاحاً باهراً في كسر حالة الجمود، وبثّ روح الاجتهاد، وإحداث ثورة فكرية وثقافية في المذهب الامامي؛ فإنّه يقف وراء حالة الركود التي سادت الحركة الثقافية مدّة قرن كامل، وهذا ما يؤكّد عمق شخصيته العلمية والأخلاقية، فقد ظلّت روح الطوسي تهيمن علىٰ أفكار ونفوس من خلفوه من العلماء مئة عام من الزمن.

لا تتوفّر تفاصيل عن حياة «الطوسي» سوىٰ تلك المحطّات الهامّة من حياته الصاخبة، وما وصَل الينا من تراثه العميق؛ وهذا يكفي ـ في حدّ ذاته ـ لأن يحدّد ملامح شخصيةٍ قُدِّر لها أن تقود حركة علمية كبرى.. ماتزال آثارها قائمة حتىٰ اليوم.

كمال السيد

الفصل الأوّل

لؤلؤة في الضوء

طوس

طوس تلك المدينة العريقة بتاريخها.. الحافلة بالأحداث والرجال... رجال أثروا الحضارة والفكر العالمي؛ فيها نشأ «الفردوسي»، وفيها ترعرع «نصير الدين الطوسي» الفلكي المشهور، ومنها انطلق «الشيخ الطوسي» رائد أحدث مدرسة فقهيّة في عصره.

لم تدخل «طوس» دائرة الضوء الاّ بعد أن حلّ فيها الامام علي الرضا عليه السلام الامام الثامن من أئمّة اهل البيت عليهم السلام، وكان وصوله اليها في حوادث عاصفة في طليعتها مصرع الأمين، على يد أخيه المأمون، وفرض ولاية العهد للإمام «بالقوّة» لمصالح سياسية بحتة.

ولنترك عجلة التاريخ تدور لتتوقّف عقارب الزمن عند رمضان سنة ٣٨٥ هـ. حيث أطلّ على الدنيا صبيٌّ كلؤلؤة تتألّق نوراً فتضيء منزلاً مفعماً بالايمان بالله والولاء لآل رسول الله.

وحمل الصبيُ اسم «محمد» ليؤسِّس فيما بعد أعظم مدرسة في دنيا الفقه، وأن يفتح باب الاجتهاد علىٰ مصراعيه لتتبلور علىٰ يديه ملامح مدرسة أهل البيت عليهم السلام، وليصبح محمد بن حسن الطوسي «شيخ الطائفة» بلا منازع.

إنّ للتاريخ دوراً في صنع جانب من الشخصية، والتاريخ مجموع الحوادث التي يتوالىٰ وقوعها ضمْن نسق خاضع لقانون ما يمكن اكتشافه في الباعث الديني والنفسي والاقتصادي أو مزيج يتألّف من الثلاثة.

لقد أمضىٰ الشيخ الطوسي «٢٣» سنة من عمره في مسقط رأسه (طوس)، وخلال تلك الحقبة من الزمن وقعتْ بعض الحوادث السياسية والاجتماعية؛ وكان الجوّ العام مشحوناً بالقهر والظلم والاضطهاد، ولم يكن يسمح ببروز شخصية في مستوىٰ الطوسي، بسبب قناعاته السياسية التي تستمدّ أصولها من القاعدة الفكريّة لأهل البيت عليهم السلام.

علىٰ أنّ بعض الشخصيات تفرض نفسها من خلال قوّة الارادة التي تخترق حاجز المستحيل:

أوّلاً: عاش «الطوسي» في زمن الغزنويّين، وهو حكم تركي امتاز

بالتعصب الأعمىٰ، خاصة في عهد سبكتكين[١].

وفي عهد سبكتكين تعرّض الضريح الطاهر للامام الرضاﷺ للدمار وأُعيد بناؤه في عهد محمود الغزنوي في محاولة لامتصاص نقمة الجماهير وانتقام الخلفاء الفاطميّين في مصر.

وفي هكذا جوّ متشنج نشأ الطوسي وأمضىٰ ٢٣ عاماً من حياته قبل أن ينتقل الىٰ بغداد.

ثانياً: كانت ولادة الطوسي بعد أربعة اعوام من رحيل المفكّر الشيعي الكبير الشيخ محمد بن بابويه المعروف بالشيخ الصدوق.

ثالثاً: تزامنتْ ولادته مع رحيل «الصاحب بن عباد» الشخصية السياسية والعلمية والادبية البارزة في الحكومة البويهية[٢].

رابعاً: في سنة ٣٨٤ أنهىٰ الفردوسي[٣] ملحمته الشهيرة «الشاهنامة» في مدينة طوس. وفي سنة ٤٠١ هـ، تعرضت لبعض التعديلات بإشارة من محمود الغزنوي.

وكان من المتوقّع أن يمنح الفردوسي أعظم جائزة آنذاك، ولكن

---

(١) انقض علىٰ الحكم بعد ضعف الحكم الساماني سنة ٣٦٦ هـ. وقد حكمت الاسرة الغزنوية حتىٰ ٥٨٢ وامتد نفوذها في مساحات شاسعة في ايران والهند وافغانستان، وقد تعاقب علىٰ الحكم ٢١ ملكا.

(٢) وزير في عهد ركن الدولة.

(٣) ابرز الشعراء الايرانيين علىٰ الاطلاق.

انتماءه الىٰ المذهب الشيعي حال دون ذلك.

وفي أجواء متشنّجة سياسياً وثقافياً، نشأ الطوسي وأمضىٰ الفترة الأولىٰ من حياته، كما أنّ منظر الهجمات الوحشية وتدمير مرقد أحد أئمة أهل البيت تعدّ إهانة لمقدسات طائفة اسلامية كبيرة تدعو الىٰ ولاء أهل البيت عليهم السلام.

إنّ منظراً كهذا لابدّ وأن يحزّ في نفس المرء ويكون وقعه أشدّ في حسّ مرهف كالذي كان يتمتّع به «الطوسي».

علىٰ أنّ الظلم الذي نزل بهذه الطائفة لم يدفع الطوسي الىٰ الاضمحلال والاستسلام، بل كان باعثاً متأجّجاً دفعه الىٰ تكريس الوجود الشيعي عبر قاعدة فكرية صلبة، وقد نجح في ذلك الىٰ حدّ بعيد.

العالم الاسلامي في القرنين الرابع والخامس الهجريين

انتشر الاسلام ككيان سياسي، فشمِل مناطق واسعه من العالم. فمن وسط آسيا الىٰ شمال أفريقيا.. الىٰ قلب أوربا الىٰ أسوار الصين.

وقد عاش الطوسي في زمنٍ اضمحلّت فيه الخلافة العباسية.. حتىٰ وصلت الىٰ أدنىٰ مستوىٰ لها من النفوذ، وظهرت هنا وهناك حكومات قوّية كالدولة البويهيّة.. ولم يبق من الخلافة العباسية سوىٰ الاسم، وقد حكم البويهيّون ١٣٨ سنة، ودانت لهم مناطق

واسعة في العراق وايران، وقد تبنّىٰ آل بويه[١] المذهب الشيعي.

وفي سنة ٣٣٤هـ. قرّر «معزّ الدولة» نقْل مركز حكومته الى بغداد عاصمة الخلافة العباسية، وكان النفوذ البويهي مطلقاً، حتىٰ أنهم كانوا يعزلون الخلفاء العباسيين ويُنصبّون غيرهم[٢].

الثورة الثقافية

وفي العهد البويهي ازدهرت المدارس الشيعيّة، بعد أن وجدت جوّاً مساعداً تتنفّس فيه. ومن هنا انطلق العلماء بما أُوتوا من قوّة الىٰ تفجير ينابيع مذهب أهل البيت عليهم السلام، فأُرسيتْ في فترة قصيرة نسبياً قاعدة فكرية عريضة. ويمكن الاشارة الىٰ عدّة نقاط في هذا المضمار.

ا ـ وجد الفقهاء الشيعة فرصة مناسبة لتسجيل حضورهم الفكري والعلمي، في الساحة الثقافية، بعد انحسار القهر السياسي الذي امتدّ أربعة قرون.

ب ـ ظهور شخصيات كبيرة في مستوىٰ «المفيد» و«السيد المرتضىٰ» كان لها نفوذ اجتماعي وسياسي كبير.. كما كان لها الأثر

---

(١) أسرة ايرانية من الديلم (شمال ايران) امتدّ نفوذها ليشمل جنوب ايران، الري، همدان، اصفهان، كردستان، العراق. وقد اعتلت سدّة الحكم سنة ٣٢٠ هـ . حتى عام ٤٤٨.

(٢) الكامل في التاريخ ج ٥ ص ٢٦٧ ـ ٢٧١ .

البالغ في نشر الفكر الشيعي وازدهاره.

جـ ـ استمرار الحركة الثقافية وتطورها حتىٰ سقوط بغداد بأيدي المغول وتمكّنها من نقل مراكزها الىٰ مدن أخرىٰ مناسبة.

وخلال تلك المدة التي استمرت أكثر من ثلاثة قرون، ازدهر الفكر الشيعي ووصل الذروة، حتىٰ بات طلاب وعشّاق المعرفة يحجّون الىٰ بغداد كمركز كبير من مراكز الثقافة الاسلامية.

هجرة الشمس

في سنة ٤٠٨ هـ غادر «الطوسي» مسقط رأسه الىٰ بغداد، وكانت زعامة المذهب الشيعي يومذاك للشيخ المفيد[١].

مدرسة بغداد

لم تتبلور مدرسة بغداد كمركز من مراكز الفقه الشيعي الاّ بعد ظهور الشيخ المفيد «محمد بن النعمان».

فقد كانت مدينة قم والري منطلقاً، وكان للأولىٰ دور مبكّر في التطور الفقهي بعد الضغوط التي طالت فقهاء الشيعة في العراق في

---

(١) محمد بن محمد بن النعمان البغدادي، نشأ في بغداد، ويُعدّ رائد المدرسة البغدادية في فقه أهل البيت عليهم السلام .

العهد العباسي.

وفي تلك الفترة لمعت أسماء عديدة في سماء الفكر الشيعي أمثال الشيخ الكليني (المتوفىٰ سنة ٣٢٩ هـ.)، وابن بابويه والد الشيخ الصدوق، وابن قولويه أستاذ الشيخ المفيد (المتوفىٰ سنة ٣٦٩هـ.)، وابن الجنيد المتوفىٰ سنة ٣١٨ هـ وأخيراً: الشيخ الصدوق المتوفىٰ سنة ٣٨١ هـ.

ويُعدّ كتاب «الكافي»(١) وكتاب «من لا يحضره الفقيه» في طليعة الانتاج الفكري في تلك الحقبة من الزمن.

وقد ساعد «آل بويه» بنزعتهم الشيعية وولائهم لأهل البيت عليهم السلام علىٰ ازدهار الفقه الشيعي في قم والري، ثم ظهرتْ مدرسة بغداد بعد أن نقل البويهيون مركز حكومتهم الىٰ بغداد.

الشيخ المفيد

ويعدّ مؤسس المدرسة البغدادية في الفقه علىٰ مذهب أهل البيت عليهم السلام، تفرّغ للعلم منذ صباه، وسرعان ماظهر نبوغه الفكري.

تتلمذ في بداية حياته العلمية علىٰ يد الشيخ الرماني، وكان من

---

(١) يعد الكتاب أكبر موسوعة حديثية تضمّ ما صحّ من الأحاديث المرويّة عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم والائمة من آله عليهم السلام .

كبار علماء السنة في بغداد.

ومما يُذكر عن نبوغه أنّ التلميذ الصغير كان جالساً في زاوية من المجلس عندما سأل احدُهم الشيخ الرماني عن حديثي «الغدير» و«الغار».

فقال الشيخ الرماني: حديث الغدير رواية وحديث الغار دراية، ولا تُقدّم الرواية علىٰ الدراية.

فلاذ السائل بالصمت.

وهنا تقدّم التلميذ (المفيد) مخترقاً الصفوف، وسأل الشيخ قائلاً:

ـ ما تقول في من يخرج علىٰ إمام زمانه؟

فأجاب الشيخ علىٰ الفور: كافر.

ثم استدرك قائلاً: فاسق.

فقال المفيد: ماتقول في إمامة أمير المؤمنين علي بن ابي طالب عليه السلام؟

فقال الرماني: لاشك في إمامته.

فقال المفيد: فما تقول في خروج طلحة والزبير؟

فوجئ الرّماني بنباهة هذا التلميذ الصغير، فحاول تدارك الأوضاع قائلاً: إنّهما تابا بعد ذلك.

فقال المفيد مفنّداً:

إنّ توبتهما رواية، وحربهما للإمام دراية، ولا تُقدّم الرواية علىٰ الدراية.

فأفحم الشيخ الرماني، واعترف بهزيمته أمام التلاميذ.

وقد حاز التلميذ المبتدئ في هذا الحوار لقب «المفيد» الذي أطلقه عليه الشيخ الرماني.

فرض الشيخ المفيد شخصيته علىٰ الحياة الفكرية في بغداد، وتمكّن من إدخال تغييرات جوهرية علىٰ الفقه، وأن يطوِّر من قواعده ومناهجه.

قال فيه العلامة الحلّي: من تأخّر عنه استفاد منه، وفضله أشهر من أن يوصف في الفقه والكلام والرواية.

وقال اليافعي في مرآة الجنان: «عالم الشيعة وإمام الرافضة، صاحب التصانيف الكثيرة، المعروف بالمفيد وبابن المعلّم أيضاً، البارع في الكلام والجدل والفقه، وكان ينازع كل عقيدة بالجلالة والعظمة، ومقدماً في الدولة البويهية، وكان كثير الصدقات، عظيم الخشوع، كثير الصلاة والصوم، حسن اللباس، وكان عضد الدولة ربما زار الشيخ المفيد، وكان شيخاً ربعة أسمر، عاش ستاً وسبعين سنة، وله أكثر من مائتي مصنف، وكان يوم وفاته مشهور، وشيّعه ثمانون ألفاً من الرافضة والشيعة، وأراح اللّٰه منه».

وهذه أجمل صورة يمكن أن تعكس باختصار شخصية المفيد العلمية والأخلاقية بالرغم من روح العداء والتحامل التي تطفو فوق السطور.

ومن هنا يمكن القول أنّ الشيخ المفيد قد تمكّن من فرْض مدرسة أهل البيت عليهم السلام في بغداد، وهي من أهم مراكز الحركة الفكرية في العالم الاسلامي آنذاك.

في سنة ٤٠٨ هـ. حلّ الطوسي في مدينة بغداد، وتتلمذ مدة خمسة أعوام أي حتىٰ عام وفاة الشيخ المفيد سنة ٤٨٣ هـ. لينتقل بعدها الىٰ رحاب السيد المرتضىٰ.

السيد المرتضىٰ

كان «المرتضىٰ» علم الهدىٰ وشقيقه «الرضي» من أبرز تلامذة الشيخ المفيد، وقد عنى المفيد بهما عناية فائقة، فنبغ «المرتضىٰ» في الفقه الىٰ جانب تفوّقه في الأدب، فيما اتّجه أخوه الىٰ الشعر، فبرز كأعظم شاعر في تلك الحقبة من الزمن.

ينتسب الشريف «المرتضىٰ» الىٰ الامام «موسىٰ الكاظم» الامام السابع من ائمة أهل البيت عليهم السلام ، وهذا ما عزّز من مكانته اجتماعياً وثقافياً؛ فملأ الفراغ الذي نجم عن رحيل أستاذه المفيد.

وقد بلغ تخصصه في آداب العربية أن قال فيه عزّ الدين أحمد بن مقبل: لو حلف إنسان أنّ السيد المرتضىٰ كان أعلم بالعربية من

العرب لم يكن عندي آثماً[1].

وقد سار «المرتضىٰ» علىٰ خطىٰ «المفيد» في تحديث مناهج الفقه ودراسة الأصول، وكان موفقاً في هذا المضمار، فقد أرسىٰ دعائم الاصول وبنىٰ علىٰ ذلك صرحاً من الفروع، ويعدّ كتاب «الذريعة» وثيقة كبرىٰ.

ومما يدلّ علىٰ مكانة السيد المرتضىٰ العلمية ما ذكره القاضي التنّوخي من أنّه «خلّف بعد وفاته ثمانين الف مجلد من مقروآته ومصنّفاته ومخطوطاته»[2].

كما أحصىٰ له السيد الأمين في كتابه (أعيان الشيعة) مايقرب من ٩٠ مجلداً من آثاره ومؤلفاته.

ثالثة الأثافي

ظهر تفوّق الطوسي في وقت مبكر من تتلمذه علىٰ يد السيد المرتضىٰ الذي أجرىٰ عليه مبلغ ١٢ ديناراً شهرياً، وهو أعلىٰ مرتّب كان يصرفه المرتضى علىٰ تلامذته[3].

---

(١) أعيان الشيعة ج ٤١ ص ١٩٠.

(٢) مقدمة المؤرخ الكبير الشيخ آغا بزرك الطهراني علىٰ كتاب التبيان في تفسير القرآن.

(٣) كان المرتضىٰ يجري علىٰ تلامذته مرتبات تتناسب مع مؤهلاتهم العلمية.

وامتدت فترة الدراسة لتستوعب مدّة ربع قرن تقريباً أهّلته لأن يكون في طليعة من يحمل لواء المدرسة الفقهية الجديدة التي تكاملت في عهده ووصلت مرحلة متقدّمة من النضج والشمول.

لقد بذل الشيخ الطوسي جهوداً جبّارة في تطوير المدرسة الفقهية وصياغة الأصول وطرق الاستدلال.

وكانت الفترة التي عاشها الطوسي، في ظلال استاذية «المفيد» و«المرتضىٰ» تمثّل ـ في الواقع ـ فترة مخاض بكل ما ترافق هذه الحالة من قلق واضطراب وجهد استثنائي.

روّاد العلم

تؤكّد الوثائق التاريخية بما لا يدع مجالاً للشك أن الشيعة وراء نشوء مختلف العلوم والفنون، وأنّهم حملوا منذ عهود مبكرة[1] لواء الابداع الفكري والانتاج العلمي.

وإذا أردنا البحث في استكشاف العوامل التي أدّت الىٰ هذه القفزة العلمية في تاريخ الفقه، فإنّنا نجد ثلاثة عوامل هي:

* النبوغ الاستثنائي الذي ميّز شخصية الطوسي.
* «مكتبة الشيعة» التي أنشأها أبو نصر سابور ابن أردشير

---

(١) يراجع كتاب الشيعة وفنون الاسلام ـ حسن الصدر ـ المترجم.

الوزير في حكومة بهاء الدولة البويهي، وتضمّ تـراث بـلاد فـارس والهند والصين والرومان، وكانت أعظم مكتبات بغداد، وقد دمّرتها الحرائق التي أشعلها «طغرل بيك» ضمن ما أحرق مـن مـؤسّسات الشيعة ومدارسهم في الكرخ.

* مكتبة الشريف المرتضىٰ، وكانت تضمّ ٨٠٠٠٠كتاب في مختلف العلوم.

واذا عرفنا انّ الطوسي لازَم هذه المكتبة مدّة ٢٨ سـنة، أدركْـنا عمْق التأثير الذي تركته في تكوين وبلْورة شخصيته العلمية.

وهناك مؤسسة أخرىٰ هي «دار العـلم» التي أنشأهـا الشريـف الرضيّ، وتضمّ مكتبة ضخمة يستبعد المرء تجاهلها من قبل باحث في مستوىٰ الشيخ الطوسي، سيما وأنّ المـؤسسة مـتوفّرة عـلىٰ وسـائل الراحة والخدمات الأخرىٰ التي يمكن أن تفيد الباحثين.

زعامة الطائفة

رحل «المرتضىٰ» الىٰ الرفيق الاعلىٰ بعد أن عمّر ٨٠ عاماً، تاركاً وراءه تراثاً ضخماً من مؤلفاته ونتاجاته الفكرية[١].

ونهض الشيخ الطوسي بزعامة الطائفة الشيعية، وكان عمره قـد

---

(١) توفي في ٢٥ ربيع الاول عام ٤٣٦ هـ.

بلغ ٥١ سنة، وكان الطوسي يعي ثقل مسؤوليته في عصر عاصف سياسياً واجتماعياً. وكان الصراع الطائفي في ذروته، وقد حدثت مآسٍ وكوراث عديدة في تلك الحقبة؛ من بينها: ما سجّله ابن الاثير من هجمات صفر سنة ٤٤٣ هـ. حيث أشعل متطرّفون من أهل السنة النار في مساجد الشيعة؛ بل ومراقد ائمة أهل البيت عليهم السلام في مدينة الكاظمية، وكانت حدّة التوتر تبلغ مرحلة الانفجار في مواسم عاشوراء.. عندما يُعلن الشيعة حزنهم علىٰ مصرع الحسين عليه السلام في كربلاء.

وقد عاشت الطائفة الشيعية ـ التي كان يبلغ عددها آنذك أكثر من ١٠٠,٠٠٠ ـ أيّاماً عصيبة باستثناء الفترة التي حكم فيها البويهيون بغداد.

وقد يتصوّر المرء عمْق الكارثة التي ستواجه الشيعة بعد رحيل شخصية قوية في مستوىٰ «المرتضىٰ» لولا أن قيّض اللّه لها رجلاً استطاع أن يملأ الفراغ الذي تركه ذلك السيد العلوي، وأن يقود الفكر الامامي الىٰ قممه الشامخة.

مدرسة أهل البيت عليهم السلام

لم تستمر فترة التسامح التي انتعشت في ظلال حكم البويهيين سوىٰ فترة وجيزة، الاّ أنها كانت كافية لبناء الصرح الفكري لمدرسة

أهل البيت عليهم السلام.

وكان ظهور هذه المدرسة مدعاة لمعارضة المذاهب الأخرىٰ. وبدأت موجة من الصراع الفكري تمخّض عنها ما يمكن أن ندعوه بالفقه المقارن.

وبغضّ النظر عن البواعث السياسية وراء ذلك الصراع، الاّ أنها أدّت بالنهاية الى خصوبة البحث الفقهي.

وقد برز الشيخ الطوسي في تلك البحوث وتوسّع في مضمار دراسة مسائل الخلاف الفقهية في كتابه «الخلاف» وتناول ـ بشكل عميق ـ مختلف أبواب الفقه مستعرضاً في كل مسألة ما يستند اليه الفريقان، وما يزال الكتاب ـ بالرغم من قدمه ـ يحظىٰ بأهمية فائقة.

يقول الشيخ الطوسي في مقدمة كتابه «المبسوط»:

«اني لا أزال أسمع معاشر مخالفينا من المتفقّهة والمنتسبين الىٰ علم الفروع، يستخفّون بفقه أصحابنا (الامامية) وينسبونهم الىٰ قلّة الفروع وقلّة المسائل، ويقولون إنهم أهل حشو ومناقضة، وإنّ من ينفي القياس والاجتهاد لا طريق له الىٰ كثرة المسائل والتفريع ولا الأصول، لأن جلّ ذلك وجمهوره مأخوذ من هٰذين الطريقين.

وهذا جهل منهم بمذاهبنا وقلّة تأمّل لأصولنا، ولو نظروا في أخبارنا وفقهنا لعلموا أنّ جلّ ماذكروه من المسائل موجود في أخبارنا ومنصوص عليه عن أئمتنا، وقولهم في الحجة يجري مجرىٰ قول النبي صلى اللّٰه عليه وآله.. أما خصوصاً أو عموماً أو تصريحاً أو تلويحاً.

وكنت علىٰ قديم الوقت وحديثه متشوِّقَ النفس إلىٰ عمل كتاب يشتمل علىٰ ذلك تتوق نفسي اليه، فيقطعني عن ذلك القواطع، وتشغلني الشواغل وتضعف نيّتي أيضاً فيه قلة رغبة هذه الطائفة فيه وترك عنايتهم به، لأنّهم ألفوا الاخبار ومارووه من صريح الالفاظ، حتى أنّ مسألة لو غُيِّر لفظها وعُبِّر عن معناها بغير اللفظ المعتاد لهم لعجبوا منه وقصُر فهمهم عنها.

وكنت عملت ـ علىٰ قديم الوقت ـ كتاب (النهاية)، وذكرت جميع ما رواه أصحابنا في مصنّفاتهم وأصّلوها من المسائل وفرّقوه في كتبهم، ورتّبته ترتيب الفقه، وجمعت بين النظائر، ورتّبت فيه الكتب علىٰ ما رتبت للعلة التي بيّنتها هناك، و لم

أتعرّض للتفريع علىٰ المسائل ولا لتعقيد الأبـواب وترتيب المسائل وتعليقها والجمع بين نظائرها، بل أوردت جميع ذلك ـ أو أكثره ـ بالالفاظ المنقولة حـتىٰ لا يسـتوحشوا مـن ذلك، وعـملت بآخـره مختصراً في جمل العقود في العبادات، ووعدت فيه أن أعمل كتاباً في الفروع خاصّة يُضاف الىٰ كتاب (النهاية) ويجتمع معه، فيكون كاملاً كافياً في جميع ما يُحتاج اليه.

ثم رأيت أنّ ذلك يكون مبتوراً يصعب فهمه عـلى الناظر فيه، لأنّ الفرع إنّما يفهمه اذا ضبط الأصـل معه، فعدلت الىٰ عمل كـتاب يشـتمل عـلىٰ عـدد يجمع كتب الفقه التي فصّلها الفقهاء، وهو نحو من ثلاثين كتاباً أذكر كل كتاب منه علىٰ غاية ما يمكن تلخيصه من الألفاظ، واقتصرت علىٰ مجرّد الفـقه دون الادعية والآداب، وأعقد فيه الأبواب، وأقسّم فيه المسائل، وأجمع بين النظائر، وأستوفيه غـاية الاستيفاء، وأذكر أكثر الفروع التي ذكرها المخالفون، وأقول ما عندي علىٰ ما تقتضيه مذاهبنا وتـوجبه أصولنا بعد أن اذكر أصول جميع المسائل.

وهذه الفقرات تُلقي الضوء علىٰ ما قام به الشيخ الطوسي في مضمار البحث الفقهي والأصولي ومنهج الاستدلال العلمي، وأنّ الفقه الإمامي يحمل في أعماقه الخصبة كل عوامل التقدّم واستيعاب المسائل الحديثة.

كما يلمس المرء من خلال مطالعاته أنّ الطوسي كان موفَّقاً في تحطيم حالة الجمود، وصياغة الفقه والاستنباط في ضوء موازين وأصول وقواعد تنسجم مع مصادر الشريعة.

قرار الهجرة

اذا كانت الظروف السياسية في عهد آل بويه قد ساعدت علىٰ إرساء دعائم مدرسة أهل البيت في بغداد، فإنّ ظروفاً أخرىٰ قد أدّت الىٰ اضمحلالها، وذلك بعد أن سقطت بغداد في قبضه السلاجقة عام ٤٤٧ هـ. بقيادة (طغرل بيك) الذي تعصّب لأهل السنة وحرّضهم ضد إخوانهم من شيعة أهل البيت عليهم السلام، فشهد جانب «الكرخ» حرائق مروّعة، والتهمت ألسنة النيران أعظم مكتبة في بغداد؛ وهي مكتبة «ابو نصر سابور»، ولم تسلم المصاحف من تلك الغارة الوحشية، فاحترقت ١٠٠ نسخة نفيسة من القرآن الكريم. ولن يغفر التاريخ للسلاجقة عمليات التدمير الثقافي التي كان التعصّب الأعمىٰ باعثها الأول والأخير.

وقد أرغمت تلك الحوادثُ المريرة شيخَ الطائفة علىٰ الهجرة الىٰ النجف حيث مرقد باب مدينة علم الرسول صلى الله عليه وآله وسلم.

وكان رحيلُ الطوسي إيذاناً بنهاية عصر وبداية عصر آخر في تاريخ الفقه الامامي، وظهور «النجف» كمركز علمي كبير.

جامعة النجف

كان اختيار الطوسي للنجف في تلك الظروف العصيبة اختياراً حكيماً وموفَّقاً. ولعلّ النجف آنذاك كانت المكان الوحيد الذي ظلّ في مأمن من الغارات الطائفية التي كان يرعاها السلاجقة أو يُشجّعون عليها.

وكان للقبائل الشيعية المحيطة بالنجف دور كبير في الدفاع عن تلك البقعة المقدّسة وصدّ الغارات الوحشية في وقت عانى فيه العراق موجة من القلق والرعب إثر المذابح المروّعة التي نفّذها المتعصّبون دون رحمة.

وبانتقال الشيخ الطوسي الىٰ النجف، دبّت في الأرض حياة جديدة وانبعثت ـ فيما بعد ـ نواة لأوّل جامعة علمية.

وكان للشيخ ـ بروحه الطاهرة التي تشبه حبّات الندىٰ صفاءً، وبنفسه الكبيرة التي تحكي أمواج البحر، وبإرادته الفولاذية ـ الأثر الكبير في تلك الانعطافة التاريخية في مسار الفكر الامامي.

البداية الجديدة

في بغداد، اقتُحم منزل الشيخ الطوسي، وصودرت جميع ممتلكاته ـ بما في ذلك مؤلفاته، وكرسي كان يجلس عليه للتدريس ـ.

وعندما ولّىٰ وجهه شطر النجف لم يصطحب معه سوىٰ عبقريّته الهائلة، وذاكرته القوية، وبعض مريديه، فشمّر عن ذراعيه ليبدأ ـ من جديد ـ في تفجير ينابيع العلم والمعرفة والفكر.

وقد أنفق في ذلك اثني عشر عاماً؛ وهي كل المدّة التي عاشها شيخ الطائفة في النجف قبل أن يودّع الدنيا.

دموع الملائكة

في عام ٤٦٠ هـ. شهد منزلِ متواضع من منازل النجف الأشرف رحيل واحد من أعمدة الفكر والعلم والايمان.

كانت ليلة ٢٢ من محرم الحرام، موعد ذلك الرحيل الملكوتي.

أجل؛ لقد رحل الطوسي الىٰ الدار الآخرة، بعد أن مكث في دار الفناء مدّة ٧٦ سنة.. ملأها علماً وعملاً، وخلّف من بعده آثاراً خالدة من عبقريته.

وتولّىٰ تجهيزه ثلاثة من تلامذته ومقرّبيه، ثم ووري الثرىٰ في منزله الذي تحوّل الىٰ مسجد طبقاً لوصيته.

ويرىٰ الزائر اليوم في جهة الشمال، وعلىٰ مقربة ٢٠٠ م من البقعة العلوية الطاهرة، مسجداً يُدعىٰ مسجد الطوسي، فيما سُمّي باب الصحن الذي يؤدّي الىٰ مقبرة الشيخ بباب الطوسي، كما استحدث شارع يحمل اسم شارع الطوسي.

وأضحى مرقد شيخ الطائفة الكبير مزاراً يقصده المؤمنون تبرّكاً، فيما تحوّل مسجده الىٰ مدرسة كبرىٰ تحتضن مئات الطلاب والعلماء، وكأنّ روحه الكبيرة ما تزال ترفرف فوق المكان تهَبُ عشّاق العلم والمعرفة جذوة تؤجّج في النفوس الإرادة والعزم والنشاط.

فقد أمضىٰ الشيخ محمد حسن النجفي مؤلف الكتاب المشهور «جواهر الكلام» حياته يدرّس الىٰ جانب مرقد شيخ الطائفة. وعندما طلبوا منه الانتقال الىٰ مسجد أكبر يحمل اسمه، رفض ذلك احتراماً «للطوسي».

أسرة الطوسي

خلّف الطوسي ذرّية صالحة كان لها دور كبير في الحياة الثقافية والفكرية، وفيما يلي استعراض لبعض الشخصيات:

١ ـ الشيخ أبو علي: وهو نجل شيخ الطائفة، وقد لقّب بالمفيد الثاني.. تصدّى الىٰ المرجعيّة وزعامة الحوزة العلمية بعد رحيل والده، وكان متفوّقاً في عهده.

تخرّج علىٰ يديه عديد من العلماء ممن أضاءوا دنيا العلوم وسماء الفكر. أحصىٰ المؤرخ الكبير آغا بزرک الطهراني ٣٤ تلميذاً من تلامذته[١]، ومن بينهم اثنان من كبار علماء أهل السنّة.

لم يضبط التاريخ في سجّله تفاصل عن حياته أو سنة وفاته.

٢ ـ الشيخ أبو نصر محمد: حفيد الشيخ الطوسي، وكان عالماً كبيراً وفقيهاً مبرّزاً، أثنىٰ عليه ابن عماد الحنبلي (المؤرخ) في كتابه «شذرات الذهب» بالزهد والتقوىٰ والصلاح. كما ذكره الطبري ـ هو الآخر ـ بل أكّد رغبته في الصلاة عليه[٢]. توفي سنة ٥٤٠ هـ.

٣ ـ بناته

للشيخ الطوسي حفيدتان من نجله ابي علي، وكانتا عالمتين فقيهتين، جاء ذكرهما في كتاب (رياض العلماء)، وقد أجازهما والدهما برواية الحديث.

---

(١) مقدمة تفسير التبيان.

(٢) لو جازت الصلاة على غير الأنبياء لصلّيت عليه.

الفصل الثاني

التراث

تراث الطوسي

امتاز الطوسي بعقلية استثنائية لا يمكن تلخيصها بما تعارف عليه البعض بالعبقرية. فقد عاش الطوسي في زمنٍ عاصف سياسياً وخانق ثقافياً، وكان دخان الحرائق وألسنة النار تتصاعد من أضخم مكتبات بغداد. وفي مثل تلك الأجواء المتأزّمة تجلّت عبقريّة الطوسي؛ ليُرسي دعائم متينة، ويشكّل قاعدة فكرية صلبة لمدرسة أهل البيت عليهم السلام، وماتزال بصماته واضحة حتى اليوم.

وإذا أردنا أن نستعرض تراث الطوسي، وما سلم من أنياب الدهر ونوائب الزمن، فإنّنا سنتوقّف أمام محطّات عديدة تستدعي التأمّل وتنتزع الاعجاب.

في ميدان التفسير نتوقّف في ثلاث محطّات هي:

أ ـ التبيان في تفسير القرآن

ويقع في عشرة أجزاء مع مقدمة عميقة حول علوم القرآن، ويعدّ الكتاب رائداً في كثير من جوانبه.

وقد أعرب الطبرسي، وهو من كبار مفسري الشيعة، عن إعجابه به، ولم يُخْفِ تقليده في الأسلوب «فهو كتاب يسطع بنور الحق»[١].

ويُعدّ هذا الأثر الكبير موسوعة قرآنية تضمّ علوماً شتىٰ؛ دفعت العلامة الحلّي (محـمد بن ادريس) ـ بالرغم من رفضه لبعض فتاوىٰ الشيخ ـ الىٰ الافصاح عن إعجابه العميق بالكتاب.. ومن ثمّ العـمل علىٰ اختصار الكتاب تحت عنوان «البيان»[٢].

ب ـ المسائل الدمشقية في تفسير القرآن

ويشتمل علىٰ اثنتي عشرة مسألة تدور حول علم التفسير[٣].

ج: المسائل الرجبية في تفسير القرآن:

وهي رسالة حول تفسير بعض آيات القرآن الكريم.

---

(١) مجميع البيان ج ١ ص ١٠ .

(٢) مقدمة المؤرخ الكبير آقا بزرگ الطهراني علىٰ كتاب التبيان.

(٣) الذريعة ج ٥ ص ٢٢٠ .

علم الحديث

يحظىٰ علم الحديث بأهمية فائقة في أوساط المسلمين عموماً ولدىٰ الشيعة علىٰ وجه الخصوص، ويُعدّ أحد أهمّ منابع الفقه الاسلامي.. الذي لا يمكن لفقيه ما أن يتفوّق في مجالسه مالم يتخصّص في هذا الميدان.

ولقد كان الطوسي استاذاً كبيراً في هذا المضمار؛ يشهد بذلك كتاباه الشهيران «التهذيب» و «الاستبصار»، وهما من كتب الشيعة الأربعة المشهورة، ويحظىٰ كتابا الطوسي باهمية فائقة لتفوّقهما كمّاً وكيفاً، وعلىٰ مستوىٰ المذاهب الاسلامية جميعاً:

أ ـ تهذيب الاحكام:

ويقع في عشرة أجزاء. وبالرغم من انتماء الكتاب الىٰ حقل الحديث والرواية، الاّ أنّه يشتمل علىٰ بحوث فقهية عميقة.

وكان عمر الطوسي يومها ٢٥ سنة؛ وهو أمر يدعو الىٰ الاعجاب.

ب ـ الاستبصار:

وهو من منابع الفقه الأربعة لدىٰ الشيعة، ويقع الكتاب في ثلاثة أجزاء تغطي العبادات جزئيه الأولين، فيما يشتمل الجزء الثالث علىٰ سائر أبواب الفقه؛ من قبيل العقود والمعاملات والحدود والقصاص والديات.

يضم الكتاب ٥٥١١ حديثاً في أربعة مجلّدات.

ويمتاز الكتاب بانحصاره على الروايات والأخبار التي تختلف من حيث المدلول والمحتوىٰ.

ج ـ الامالي أو المجالس في الاخبار:

ويشتمل الكتاب على ٤٥ مجلساً تشتمل علىٰ أمالي الشيخ الطوسي في الأحاديث.

الفقه

يعدّ «الفقه» من الخصائص التي تمتاز بها الثقافة الاسلامية، الفقه الذي يعبّر عن أحكام الاسلام المستنبطة من المصادر الشرعية (القرآن، سنة النبي والائمة من أهل البيت عليهم السلام، الاجماع والعقل)، حيث يقوم مختصّون (مجتهدون) بتلك المهمّة.

لقد حدّد القرآن الخطوط الاساسية للحياة الانسانية بشكل شمولي يستوعب مسار الانسان وهدفيته والغايات المنشودة.

وبالنظر لتطوّر الحياة وتعدد حاجات الانسان وتجدّدها، ظهرت الحاجة الىٰ معرفة الموقف الاسلامي إزاء التطوّر الحياتي، فنجم عن ذلك الحاجة الىٰ الاجتهاد الذي يعدّ أساس الفقه.

وقد كان للشيخ الطوسي في هذا المضمار باع طويل في دفع حركة الفقه الىٰ الامام، وتحطيم حالة الجمود. ويعدّ تراثه منعطفاً كبيراً في مسيرة الفقه:

١ـ كتاب النهاية

دورة متكاملة في الفقه، ويبدو الكتاب رسالة عملية يتعبّد بها مقلّدوا الشيخ.

ويبدو أنّ الكتاب قد أثار جدَلاً بين أبرز علماء عصره، وأشبعوه تأمّلاً وتحليلاً، وأجمع أبرزهم ـ وهم كلٌّ من حسين بن مظفر الحمداني، وعبد الجبار بن علي الرازي، و ابن بابويه المعروف بالحسكا ـ علىٰ أنّه لا يخلو من إشكالات.

كما يبدو أنّهم ناقشوا الردّ عليه، ثم ارتأوا أن يتوجّهوا إلىٰ زيارة المرقد الطاهر لأمير المؤمنين عليه السلام في النجف الأشرف، فاغتسلوا ونووا صوماً مدّة ثلاثة أيام، وقد رأوا في عالم الاطياف أنّ عليّاً عليه السلام يؤيّد صحة الكتاب[1].

٢ـ المبسوط

جمد أغلب فقهاء الشيعة ـ في عصر الطوسي ـ علىٰ مداليل الألفاظ في الأحاديث واستنباط حكم المسائل؛ علىٰ أنّ المنهج الأوسع والصحيح هو استنباط قواعد عامّة يمكن أن تستوعب

---

(١) مستدرك الرسائل ج ٣ ص ٥٠٦ .

عشرات المسائل الفرعية، وقد أدّىٰ هذا الجمود الىٰ نـدرة المسـائل الفقهيّة وتدنّيها كمّاً وكيفاً.

ولكنّ عقليّة في مستوىٰ الطـوسي لم تخـضع الىٰ حـالة الجـمود السائدة آنذاك، فتحطّمت علىٰ ذراعيه الصـخور، وتـفجّرت يـنابيع دفّاقة لتُروي الحياة الفكرية.

ولهذا يُعدّ الطوسي فريداً في عصره، وعلى صعيد جميع المـذاهب الاسلامية، ويعدّ كتابه (المبسوط) رائداً في هذا المضمار، كما اشـار الىٰ ذلك بنفسه(١).

وقد ظل الكتاب مصدراً فريداً وهـامّاً مـدة قـرون، بـل وحـتىٰ عصرنا الحاضر.

٣ ـ كتاب الخلاف

الكمال الحـقيقي هدف الأنسـانية، وفي طـريق التكـامل يـتحدّد النشاط البشري في مختلف ميادين الحياة.

وتعدّد السبل ووجهات النظر تفرز حالات خلافية بين وجهات النظر تصل حدّ التناقض والتضادّ الكامل.

وبالطبع فإنّ أغلب تلك «الخلافيات» إنّمـا تنجم عـن زعـامات

---

(١) مقدمة المبسوط ج ١ ص ٢ .

فكرية ليست بالمستوىٰ المطلوب، أو لم تصل النضج الذي يجعلها تعيش في عوالم رحبة.

علىٰ أنّ الصراع الفكري وحالات الخلاف الحادّة قد أثْرت الحياة الثقافية، لتتمخّض ـ في النهاية ـ عن ولادة «الفقه المقارن»، بالرغم من أنّ جذور ذلك تعود الىٰ عهد الامام الصادق عليه السلام.

ويعدّ كتاب «الخلاف» للطوسي قمّة ما وصل اليه هذا الحقل العلمي، بالرغم مما يدعيه البعض بأن الحضارة الاسلامية لم تعرف «القانون المقارن» وأنّه من ابتكار أوربي متجاهلين مساحة ثقافية واسعة في حضارة الاسلام.

وما يزال الكتاب حتىٰ اليوم مفخرة من مفاخر المسلمين جميعاً.

٤ ـ الجمل والعقود في العبادات

وقد ألّف الكتاب استجابة لطلب أحد تلامذته «القاضي ابن البراج»[١]. كما ورد ذلك في مقدمة الكتاب التي جاء فيها أيضاً أنّه كتاب مختصر يتعرّض الىٰ مسائل العبادات والعقود الشرعية مما

---

(١) عبد العزيز الحلبي المعروف بابن البرّاج، من تلامذة السيد المرتضىٰ والشيخ الطوسي، بعثه الشيخ الىٰ وطنه في الشام، فاستمرّ قاضياً في طرابلس مدّة عشرين عاماً. توفي سنة ٤٨١ هـ. له مؤلفات؛ منها: المهذب، الجواهر ـ المترجم.

يتفرّع عنهما من الفعل والترك والاستحباب. وقد اعتمد الشيخ منهج البساطة في توضيح ذلك ما أمكن.

٥ـ الايجاز في الفرائض

رسالة قصيرة في الأحكام الشرعية للأرث؛ استوفىٰ فيها بحوثاً مفصّلة في مسائل يرجعها الىٰ كتاب «النهاية».

وقد شرحه الشيخ سعيد بن هبة اللّٰه الراوندي المعروف بالقطب الراوندي، وقبره الآن في جانب من الصحن الكبير لمرقد السيدة المعصومة في قم المقدسة. توفي سنة ٥٧٣ هـ.

٦ ـ مناسك الحج في مجرد العمل

وهي إحدىٰ مؤلّفاته المفقودة، وقد أُشير اليها في «الفهرست».

٧ـ المسائل الحلبية في الفقه

وهي مفقودة ايضاً، ورد ذكرها في كتاب «الفهرست».

٨ـ المسائل الجنبلائية في الفقه

رسالة تضمّ ٢٤ مسألة في الفقه، وهي عبارة عن بحوث وأجوبة عن أسئلة شرعية تقدّم بها أهالي جنبلاء في العراق.

٩ـ المسائل الحائرية في الفقه

وتضمّ هذه الرسالة ثلاثمئة[1] مسألة فقهية. كان أهالي كربلاء قد تقدّموا بها الىٰ الشيخ الطوسي.

١٠ ـ مسألة في وجوب الجزية علىٰ اليهود

عدّه الملاّ عنايت اللّٰه القهبائي في كتابه (مجمع الرجال) من مؤلفات شيخ الطائفة[2].

١١ ـ مسألة في تحريم الفقاع

وهي رسالة في حرمة ماء الشعير، ذكرها الشيخ في فهرسته[3].

١٢ ـ مسألة في مواقيت الصلاة

كتاب عدّه ابن شهر آشوب في «معالم العلماء» من مؤلفات الطوسي، ولم يرد له ذكر في الفهرست.

---

(١) الفهرست للشيخ الطوسي ص ٢٨٨ .

(٢) مجمع الرجال ج ٥ ص ١٩٣ .

(٣) الفهرست ص ٢٨٧ .

علم الاصول

يعتبر علم الاصول من ابـتكارات الحـضارة الاسـلامية، وهـو مجموع القواعد والقوانين المعتمدة في استنباط الحكم الشرعي مـن مصادره.

ولقد أحدث الشيخ الطوسي ثورة في دنـيا الفـقه، عـندما طـوّر واستحدث قواعد وقوانين عامّة دفعتْ بالحركة الفقهية الىٰ الامـام أشواطاً بعيدة. يقول الشهيد محمد باقر الصدر:

«والفارق الكيفي بين اتجاهات العلم التـي انـطلق من هذا التطور الجديد واتجاهاته قبل ذلك، يسمح لنا باعتبار الشيخ الطوسي حداً فاصلاً بين عصرين من عصور العلم.. بين العـصر العـلمي التـمهيدي، والعصر العلمي الكامل»[1].

وفيما يلي بعض مؤلفات شيخ الطائفة في هذا المضمار:

---

(١) المعالم الجديدة ص ٥٦ .

١ ـ عدّة الاصول

يعدّ الشيخ الطوسي مجدّداً كبيراً في بنائه الصرح الفكري للمذهب الشيعي. وقاد بنفسه حركة نشيطة ضدّ كل اشكال الجمود. ويعتبر كتابه (المبسوط) شاهداً علىٰ عمق التحوّل الفكري في المسيرة الفقهية. يقول الشهيد محمد باقر الصدر:

«كتاب المبسوط كان محاولة ناجحة وعظيمة في مقاييس التطور العلمي لنقل البحث الفقهي من نطاقه الضيق المحدود في أصول المسائل الىٰ نطاق واسع يمارس الفقيه فيه التفريع والتفصيل والمقارنة بين الأحكام وتطبيق القواعد العامة ويتتبّع أحكام مختلف الحوادث والفروض على المعطيات المباشرة للنصوص»[1]

٢ ـ مسألة في العمل بخبر الواحد وبيان حجية الاخبار

وتعد هذه المسألة من المسائل الحيوية في علم الاصول، وقد أوردها الشيخ في «الفهرست» وهو من مؤلفاته المفقودة مع الأسف.

---

(١) المعالم الجديدة ص ٦٠.

علم الكلام

وللشيخ الطوسي في علم الكلام ـ الذي يبحث في العقائد الاسلامية، استدلالاً ودفاعاً ـ مؤلفات عديدة.. تلقي الضوء على جانب من شخصيته الفلسفية. فقد ناقش شيخُ الطائفة مختلفَ المسائل العلمية والفلسفية الدقيقة:

١ ـ تلخيص الشافي في الامامة

وهو خلاصة لكتاب «الشافي» لأستاذه السيد المرتضى، ويبحث في مسألة الامامة، كما يناقش آراء المخالفين لأصل الأمامة.

ويبدو أن فكرة تلخيص الكتاب جاءت من خلال ذلك الحشد الهائل من الأدلّة والبحوث الطويلة والتكرار المملّ الذي يموج به كتاب الشافي، فعمد الشيخ الى تشذيبه وتلخيصه وترتيبه في منهج جديد يحقق الهدف المنشود.[1]

---

(١) تلخيص الشافي ج ١ ص ٥١ .

٢ ـ تمهيد الاصول

وهو شرح لكتاب «جمل العلم والعمل» للسيد المرتضىٰ، وقد ذكره الشيخ في كتابه الفهرست[١].

٣ ـ الاقتصاد الهادي الىٰ طريق الرشاد

كتاب مختصر في أصول العقائد والعبادات.

٤ ـ المفصح في الامامة

ويتضمّن الكتاب بحوثاً في الامامة، وهو من الكتب القيّمة، سبق تأليفه «تلخيص الشافي»، كما يبدو ذلك من خلال الاشارات الواردة في الكتاب الأخير.

٥ ـ مقدمة في المدخل الىٰ علم الكلام

عدّه النجاشي من آثار الطوسي[٢].

---

(١) الفهرست ص ٢٨٧ .

(٢) الرجال ص ٤٠٣ .

٦ـ رياضة العقول

ورد ذكره في الفهرست، ولا توجد له نسخة حالياً.

٧ـ ما يعلّل وما لا يعلّل

وهو كتاب في علم الكلام، ذكره النجاشي في رجاله، ونسبه الىٰ الشيخ الطوسي[1].

٨ـ ما لا يسع المكلّف الإخلال به

وهو ايضاً في علم الكلام، وعلىٰ غرار الكتاب السابق.

٩ـ شرح الشرح في الاصول

ذكر الشهيد الثاني[2] أن تلميذ الشيخ الطوسي (الشيخ حسن بن محمد السليقي) قد نقله عن أستاذه.

---

(١) الرجال ص ٤٠٣ .

(٢) زين الدين الجبعي العاملي.

١٠ ـ اصول العقائد

وهي رسالة كبيرة تتضمّن بحوثاً مفصّلة في مسألة التوحيد وبعض مباحث العدل[١].

١١ ـ الغيبة

ويعدّ من الكتب المعروفة والقيّمة التي تبحث مسألة غيبة الامام المهدي. ويبدو أن تأليف الكتاب جاء بطلب من أحد زعماء الشيعة آنذاك، ولعلّه الكتاب الوحيد الذي تطرّق فيه الشيخ الىٰ الحوادث المريرة التي تتعرّض لها الطائفة الشيعية، كما يلمس المرء فيه تضرعاً الىٰ اللّه سبحانه بتعجيل ظهور صاحب الزمان الذي يملأ الأرض قسطاً وعدلاً كما مُلئت ظلماً وجوراً.

١٢ ـ الفرق بين النبي والامام

رسالة[٢] قصيرة في صفحات، وتوجد حالياً نسخة منها في المكتبة الوطنية بطهران.

---

(١) الفهرست ص ٢٨٨ .

(٢) الفهرست ص ٢٨٨ .

١٣ ـ مسألة في الاحوال

وصَفها الشيخ الطوسي بأنّها رسالة «مليحة»[١].

١٤ ـ المسائل الرازيّة

وتشتمل علىٰ ١٥ مسألة في العقائد، كان أهل مدينة «الري» قد تقدّموا بها الىٰ السيد المرتضىٰ، فعكف الاستاذ وتلميذه علىٰ إجابتها[٢]. وهي مفقودة ايضاً.

١٥ ـ النقض علىٰ ابن شاذان في مسألة الغار

ورد ذكر الكتاب في الفهرست[٣].

١٦ ـ مسائل اصول الدين

وللكتاب اسم آخر هو «مسائل الطوسي» يبحث في العقائد الاسلامية، وتوجد منه نسختان في المكتبة الرضوية في مدينة مشهد.

---

(١) الفهرست ٢٨٦ .

(٢) الفهرست ص ٢٨٨ .

(٣) الفهرست ص ٢٨٨ .

١٧ ـ الكافي

كتاب في علم الكلام.. عدّه ابن شهرآشوب في (معالم العلماء) من آثار الطوسي، وهو من كتبه المفقودة.

علم الرجال

تحتلّ الأخبار والروايات مساحة واسعة من الفقه الاسلامي، بل وتعدّ العمود الفقري فيه، ولأجل الغوص في عالم الأخبار والروايات ولدت الحاجة الىٰ علم جديد يبحث في صحّة الأسانيد وهويّة الرجال.

ففي فترة مبكرة من تاريخ الاسلام خلقت السياسات المنحرفة عن روح الاسلام أجواء مناسبة لظهور الأحاديث والروايات المختلقة عبر رجال باعوا ضمائرهم للحاكمين.

ولقد شوّشت الأخبار الكاذبة علىٰ العقائد الاسلامية وهزّت جذور الايمان من الأعماق، وبدأت تطفو فوق السطح مختلف العقائد والأفكار الضالّة والخطيرة التي تحاول الاستناد الىٰ قاعدة عريضة من الأخبار المزيَّفة التي لا تملك اساساً من الصحّة. ومن هنا برزت الحاجة الىٰ غربلة الأخبار والروايات والرجال، ووضع فهارس في مصنّفاتهم.

ومن الكتب التي اكتسبت شهرة عالمية في هذا المضمار كتاب

«الفهرست» لابن النديم[١] و «الذريعة» لآغا بزرگ الطهراني.

وقد نبغ الشيخ الطوسي في كلا الحقلين (الرجال والفهرست). وله في ذلك مؤلفات:

١ ـ كتاب الأبواب

وللكتاب اسم آخر هو «رجال الشيخ الطوسي»، ويشتمل علىٰ ٩٨٠٠ من رواة الاحاديث، في ثلاث طبقات؛ الطبقة الأولىٰ تختص بأصحاب النبي صلى الله عليه وآله وسلم، وتختصّ الطبقة الثانية بأصحاب الائمة من أهل البيت عليهم السلام، فيما تشتمل الطبقة الثالثة علىٰ سائر الفقهاء والعلماء من الذين لم يدركوا عصر الامامة.

٢ ـ اختيار الرجال

ويحمل الكتاب حالياً اسماً آخر هو «رجال الكشي»؛ ذلك أنّ أصله يعود الىٰ «ابو عمرو محمد بن عمر بن عبد العزيز الكشي» في القرن الرابع، وكان يزخر بالأخطاء؛ وعلىٰ هذا عمد الشيخ الطوسي الىٰ ترتيبه وإجراء اصلاحات أساسية فيه. ومن هنا جاءت تسمية بـ «اختيار الرجال». ولا توجد للكتاب نسخة في الوقت الحاضر.

---

(١) من علماء القرن الرابع الهجري.

٣ ـ الفهرست

يستعرض الكتاب المؤلفين الشيعة وآثـارهم ويـضمّ أسماء ٩٠٠ من مصنّفيهم وأسماء مؤلَّفاتهم. ويعدّ الكتاب من الآثار النفيسة، وله شهرة خاصّة في علم الرجال.

ويعود تأليف الكتاب الىٰ اقتراح تقدّم به أحد زعماء الشيعة ـ كما يبدو ذلك من مقدمته ـ وهو مرتّب حسب الحروف الأبجدية، إضافة الىٰ أهدافه الأساسية في تقييم الرجال اخلاقياً.

التاريخ

امتدّت عقلية الشيخ الطوسي الموسوعية لتشمل الحقل التاريخي، وله في ذلك مؤلَّفان؛ وهما مفقودان ايضاً:

١ ـ مقتل الحسين

تحتل مسألة مصرع الحسين ـ علىٰ ذلك النحو المأساوي في رمال كربلاء ـ أهمية فائقة لتأثيراتها التاريخية والعقائدية الهامّة.

ومن هنا انبرىٰ شيخ الطائفة الىٰ تحقيق مـقتل الحسـين تـاريخياً واستقصاء شهادات من حضَر وقائع يوم عاشوراء وحوادث سبْي

آل رسول الله ﷺ. وقد أشار اليه الشيخ في الفهرست[١].

٢ـ مختصر أخبار المختار بن ابي عبيدة الثقفي

ويبحث الكتاب في شخصيّة المختار الثقفي ـ الثائر الشيعي المعروف. وقد ثار جدَل قديم حول بواعث ثورته وأهدافه، وموقفه من أهل البيت عليهم السلام. ويبدو أن الشائعات التي رافقتْ ثورته ظلّت تلقي بظلالها القاتمة مدّة قرون طويلة، بل ولاتزال مستمرّة حتىٰ يومنا هذا.

ومن هنا جاء اهتمام الشيخ الطوسي بهذه الثورة التي جاءت كردّ فعل عنيف علىٰ مذبحة عاشوراء[٢].

ومع الأسف لا تتوفّر نسخة من هذا الكتاب التي يمكن أن تلقي الضوء علىٰ شخصية ثائرة ماتزال حتىٰ اليوم تثير جدلاً واسعاً.

---

(١) الفهرست ص ٢٨٨ .

(٢) المصدر السابق.

أجوبة المسائل الشرعية والعقائدية

لم يكن الطوسي استاذاً أو عالماً فحسب، بل كان زعيماً للطائفة الشيعية، ومرجعاً لها. ومن هنا فإنّ رسائل عديدة كانت تـرِده من أنحاء مختلفة من الحواضر الاسلامية تتضمّن أسئلة شتّى، وكان شيخ الطائفة ـ وانطلاقاً من مسؤوليته ـ يهتمّ بتلك المسائل ويجيب عنها. وقد سجل الشيخ أربعة أجوبة في فهرسته، ولا توجد حتى نسخة واحدة منها:

١ ـ المسائل الالياسية:

وتشتمل على مئة مسألة

٢ ـ المسائل القيّمة:

رسالة عدّها القهبائي[1] من مؤلفات الطوسي.

---

(١) مجمع الرجال ج ٥ ص ١٩٣ .

٣ ـ مسائل ابن البرّاج:

وهي مسائل في الفقه كما يبدو، اذا اخذنا بنظر الاعتبار كون ابن البراج فقيهاً اشتغل في القضاء مدّة طويلة في طرابلس.

٤ ـ تعليق مالا يسع:

رسالة عدّها ابن شهر آشوب[١] من مؤلفات شيخ الطائفة.

(١) معالم العلماء ص ١١٥ .

الدعاء والاعمال العبادية

يحتلّ أدب الدعاء وطقوس العبادة مساحة واسعة وحساسة في الشخصية الاسلامية؛ لدورها في تعزيز علاقة الفرد المسلم مع اللّه سبحانه وتعالىٰ.

وقد كان أئمتنا الأطهار قدوة وأسوة ومثالاً سامياً في انقيادهم للّه وطاعتهم للرسول، وخير شاهد علىٰ ذلك الصحيفة السجادية للامام زين العابدين التي تعدّ أعظم تراث اخلاقي في هذا المضمار.

وقد أولىٰ شيخ الطائفة أهمـيّة كـبيرة الى هـذا الجـانب الحـياتي والمصيري في شخصية الانسان، وقد ترك في ذلك مؤلفات عديدة:

١ ـ مصباح المتهجّد وسلاح المتعبّد

وهو مجموعة منظّمة في الأذكار والأدعية والأعمال العبادية، ويعدّ من أبرز ماكُتب في هذا الحقل، وقد لخّصه العلامةُ الحلّي «المتوفى سنة ٧٢٦هـ.» وجعله في عشرة ابواب.

٢ـ مختصر المصباح

وهو خلاصة للكتاب السابق انجـزها الشيخ نفسه وأوردهـا في فهرسته.

٣ـ مختصر في عمل اليوم والليلة

وهو عبارة عن مجموع الطقوس العبادية الواجبة والمـندوبة التي يؤدّيها المسلم في اليوم والليلة، حيث يبلغ مجموع ركعات الصلوات «٥١» ركعة، مع بعض الأذكار التي تعقب كل صلاة.

٤ـ أنس الوحيد

جاء ذكره في الفهرست وهو من كتبه المفقودة.

٥ـ هداية المسترشد وبصيرة المتعبّد

وهو من الكتب العبادية المفقودة ايضاً.

الطوسي عبر العصور

بقلم المترجم

تعدّ دراسة جذور وتطوّر الفكر العلمي من أعقد حقول التاريخ وأهمّها. وتنبع أهمّيته باعتباره التاريخ الحقيقي للمدنية والحضارة وسرّ استمرارها؛ فيما يظلّ الجانب السياسي يمثّل في الواقع مظهراً من مظاهر قوّة الأفكار وفعاليّتها.

ومن المؤسف ان تاريخ الفقه الشيعي قد ظلّ بمنأىً عن الدراسات العلمية منذ ظهوره وحتىٰ اليوم. وما كُتب حتىٰ الآن لا يعدو كونه مجرّد دراسات مضغوطة ولا تتسم بالعمق والشمول اللذين تتطلّبها الدراسات الأكاديمية المنشودة.

ولكي نعرف موقع الشيخ الطوسي في مسار الحركة الفقهية وتأثيراته الواسعة والعميقة في هذا المسار الطويل يتوجّب علينا استعراض المسيرة الفكريّة ولو باختصار.

لقد قسّم الذين أرّخوا للفقه الإمامي ـ منذ نشوئه وحتىٰ سقوط بغداد في ايدي المغول ـ الىٰ اربعة عصور؛ هي:

الأول: عصر الصحابة والتابعين، حيث قام الامام علي عليه السلام بأولىٰ محاولات التدوين الفكرية التي لم تجد ـ ومع الأسف ـ اهتماماً، بل ولقيت معارضة متعنّتة من السلطة يومذاك.

واذا أردنا الخوض في ملامح ذلك العصر، فإنّ أسماء ـ مثل ابن عباس، وسلمان الفارسي وأبي ذر الغفاري وآخرين ـ سوف تقفز الىٰ الأمام.

وفي تلك الفترة تبلورت الملامح السياسية للفقه الامامي حتى وصلت أعلىٰ مراحلها علىٰ يد الامام الصادق عليه السلام .

الثاني: وبمغادرة الامام الصادق عليه السلام المدينة المنورة الى الكوفة، بدأ العصر الثاني.

ولقد شهدت الكوفة في تلك الحقبة هجرة عقول علىٰ نطاق واسع، حيث انتقل ما يقارب من مئة وخمسين صحابياً الىٰ الكوفة، اضافة الىٰ أعداد كبيرة من التابعين والفقهاء تبلغ الآلاف[1].

ويمكن تحديد بداية هذا العصر مع ظهور العباسيين وبداية دولتهم، وتعدّ تلك الفترة من فترات الازدهار الفكري نتيجة انحسار

---

(١) تاريخ الكوفة ص ٣٨٢ .

القهر السياسي والثقافي الذي مارسه الأمويون على نطاق واسع.

ولكي نعرف مدى الازدهار الذي وصلتْ اليه مدرسة أهل البيت عليهم السلام، نشير الى أن الذين رووا عن الامام الصادق قد بلغ عددهم اكثر من اربعة آلاف عالم(١).

وفي تلك الفترة شهدت حركة التدوين نشاطاً كبيراً بتشجيع الامام الصادق عليه السلام(٢)، وظهرت مئات الكتب في الحديث الذي يظلّ المنبع الاساس للفكر الفقهي(٣).

ولقد ظلّت الكوفة ـ بالرغم من التحوّلات السياسية والاجتماعية ـ في طليعة المراكز الثقافية الكبرى مدة طويلة.

الثالث: وقد بدأ مع انتهاء عصر الإمامة وبداية الغيبة الكبرى للامام المهدي عجّل الله تعالى فرجه.

وفي هذا العصر شهدت الكوفة بداية انحطاطها واضمحلالها الثقافي فيما برزت مدينة قم والري في ايران كقواعد جديدة للفكر الامامي.

وتعدّ مدينة قم من المدن الشيعية العريقة. وقد ورد ذكرها في كثير

---

(١) تاريخ الكوفة ص ٤٠٨.

(٢) قال عاصم: سمعت أبا بصير يقول: قال أبو عبد الله الصادق عليه السلام «اكتبوا فإنّكم لا تحفظون الاّ بالكتابة».

(٣) الذريعة ج ١ ص ١٧.

من مرويّات أهل البيت عليهم السلام التي تتضمّن حثّاً علىٰ السكنىٰ فيها؛ للتدليل علىٰ أهميّتها التاريخية التي ظهرت بعد أن أصبحت مرقداً لفاطمة شقيقة الامام الرضا، وكانت عالمة كبيرة وراوية للحديث.

ويعود سبب انتقال مركز الحركة الفكرية من بغداد الىٰ مدن أخرىٰ، الىٰ تصاعد حدّة الظلم السياسي، ومحاولة تدمير الوجود الشيعي في العصر الثاني من الحكم العباسي؛ الأمر الذي دفع ببعض الزعامات الفكرية الىٰ البحث عن أماكن آمنة تكفل للفكر الامامي استمراره وتطوّره، فكانت قم والريّ ـ في ظل «آل بويه» ـ ملاذاً للحركة الفكرية الشيعية.

ولكي نتصوّر عمْق الحركة الفكرية في مدينة قم، لابدّ ان نذكر ما سجّله العلامة الحلّي من أنّ عدد المحدّثين في قم، علىٰ عهد علي بن الحسين بن بابويه (المتوفىٰ سنة ٣٢٩) قد بلغ ٢٠٠٠٠٠ رجل[١].

وفي هذا العصر تقفز اسماء عديدة؛ كان لها دور فاعل في بلورة أضخم ثروة فكرية في تلك الفترة؛ في طليعتهم: علي بن ابراهيم الكليني، ابن قولويه، والشيخ الصدوق.

وفي تلك الفترة ظهرت آلاف الرسائل الفقهية التي تعكس ـ بوضوح ـ نشاط الحركة الفكرية.

---

(١) مقدمة «من لا يحضره الفقيه».

وفي تلك الفترة ـ أيضاً ـ ظلّ الحديث بحدوده اللفظية مهيمناً علىٰ الفتاوىٰ الفقهية.

الرابع: وبانتقال النفوذ البويهي الىٰ بغداد، وضعف الحكومة العباسية، انتقلتْ مدرسة أهل البيت عليهم‌السلام الىٰ عاصمة العالم الاسلامي، وعاد للطائفة الشيعية اعتبارها السياسي والاجتماعي مما أدّىٰ الىٰ انتعاش الحركة الثقافية وازدهارها.

وفي هذه الفترة شهد علم الأصول بدايات تبلوره.. كبذور حيّة تنتظر الظروف الملائمة لنموّها.

ويعدّ الشيخ المفيد والسيد المرتضىٰ، وأخيراً: الشيخ الطوسي من أعمدة هذه العصر الذي شهد انطلاق الفقه الشيعي نحو آفاقه الرحبة والواسعة.

وفي تلك الحقبة من الزمن وُلد عصر الاجتهاد الذي قدّم خدمات كبرى للمذهب الامامي، ودفع بالحركة الفقهية والعلمية الىٰ الأمام أشواطاً بعيدة.

وفي عصر الطوسي وُلد علم جديد هو علم الأصول الذي يمثّل النظرية الفقهية، وبداية القفزة العلمية في تاريخ الفقه الشيعي، حيث شهدتْ مدرسة أهل البيت تحوّلات نوعية كبرىٰ ما تزال تفاعلاتها مستمرّة حتىٰ الآن.

يقول الشيخ الطوسي عن كتابه الشهير «المبسوط»:

وهذا الكتاب اذا سهل الله تعالىٰ إتمامه يكون كتاباً لا نظير له لا في كتب أصحابنا ولا في كتب المخالفين، لأني الىٰ الآن ما عرفت لأحد من الفقهاء كتاباً واحداً يشتمل علىٰ الأصول

وهذا النص يشير بوضوح الىٰ واحدة من كشوفات شيخ الطائفة وما قدّمه من خدمات كبرىٰ في تاريخ الفقه الاسلامي.

ويبقىٰ انتقال الشيخ الطوسي الىٰ النجف ـ إثر الحوادث المؤسفة في بغداد ـ الخطوة الحياتية الهامّة التي أنقذت مايمكن انقاذه من التقدم الفكري، ومن ثم استمرار المسار العلمي في مأمنٍ من الغارات البربريّة فترة طويلة، الىٰ أن اشتدّ عوده، ووصل الىٰ ما هو عليه الآن.

ومن المهم أن نشير هنا الىٰ أن أحد اسباب ظاهرة الركود العلمي الذي ضرب أطنابه في الحياة الثقافية مدّة طويلة، يعود الىٰ غياب عنصر الاثارة المتمثّل في اضمحلال التفكير السني، الذي ألقىٰ بظلاله على عملية التفاعل الفكري كشرط من شروط التطوّر الثقافي.

لقد شهدت الحركة الفكرية بعد غياب الشيخ الطوسي جموداً وتوقّفاً.. حتىٰ سقوط بغداد في قبضة هولاكو، وظهور مدينة الحلّة كمركز بديل.. حيث بدأ العصر الخامس من العصور الفقهية، علىٰ يد

عباقرة؛ في طليعتهم: «المحقق الحلي» (نجم الدين جعفر بن سعيد) المتوفى سنة ٦٧٦ هـ. والعلامة الحلّي (جمال الدين حسن بن يوسف) المتوفى سنة ٧٢٦ هـ. والشهيد الاول محمد بن مكي المستشهد سنة ٧٨٩ هـ.

وفي طول المسار الفكري لمدرسة أهل البيت عليهم السلام يبقىٰ الشيخ الطوسي واحداً من نقاطه المضيئة، التي ماتزال تشعّ حتىٰ اليوم.

مصادر الكتاب

١ ـ أعيان الشيعة
٢ ـ الفهرست / ابن النديم
٣ ـ شذرات الذهب في اخبار من ذهب
٤ ـ مجالس المؤمنين
٥ ـ الفوائد الرجالية / بحر العلوم
٦ ـ الذريعة / آقا بزرگ الطهراني
٧ ـ روضات الجنّات
٨ ـ الكامل في التاريخ / ابن الأثير
٩ ـ وفيات الاعيان
١٠ ـ المعالم الجديدة / الشهيد الصدر
١١ ـ الأعلام / الزركلي
١٢ ـ المنتظم / ابن الجوزي
١٣ ـ خلاصة الأقوال / العلامة الحلّي
١٤ ـ رياض العلماء / عبد الله الأفندي
وكتب أخرىٰ